بقلم الوجدان

# مشاهد من قصة لم تكتمل ..(٢) (*)

الأخ نبيل شبيب

## يَاسـر وأُمَّـه

وقف ياسر أمام الباب المفتوح مدهوشاً ثم دخل المنـــزل بخطوات سريعة ينادي أمه فلا يسمع جوابـــاً ، وسمـــع صوت أخيه الصغير يبكي في الغرفة المجاورة فدخل عليه فوجده وحده في سريره فتساءل حائراً أين أمـــه ، وكيـــف تركت الباب مفتوحا ؟ .. وحمل أخاه فأنزله من السرير وشرع يلاعبه ويعابثه حتى هدأت نفسه فأعطاه بعض لعبـــه وعاد إلى باب المنـــزل يفتحه وينظر يمنة ويسرة ، ثم دخل من جديد وقد تجهّم وجهه ، ورأى المذياع محطماً فانتابته الهواجس وتنازعته الخواطر ، وكرّر النداء لأمه فلم يسمع جواباً فجلس يفكر ماذا يحتمل أن يكون قد حدث ، وخطر له أن اليهود كانوا في المنـــزل في غيابه ، فحاول طرد الفكرة من رأسه وهو يقول لنفسه : لا شك أنها عند بعـــض الجيران وستعود سريعا .. ولكن من حطّم المذياع ؟ .. وعلام تترك أخاه الصغير وحده في المنـــزل ؟ .. ربما كـــان اليهود فعلاً في المنـــزل ، ولم يشأ أن يصدق ذلك فوقف يحاول إقناع نفسه أن شيئاً لم يقع وأن أمه ستأتي قريبـــاً ، واتجه إلى الماء فتوضأ لصلاة العصر حتى إذا فرغ نظر إلى أخيه يطمئن عليه واتجه نحو القبلة يصلي .. ولم يكد يـــسلم يمنة ويسرة حتى سمع أصواتاً وضوضاء عالية ، فظنّ اليهود قد دخلوا إلى الحي فانتابه القلق من جديد ، وما لبـــث أن سمع أصوات التكبير والتهليل فأدرك أن أهل الحيّ يتظاهرون ، وتنازعته المشاعر يريد الذهاب لمشاركتهم في تظاهرتهم ولا يريد ترك أخيه وحده ، واقترب هدير الأصوات ففتح الباب ورأى جمعاً غفيراً من الـــشيوخ والنـــساء يـــسيرون هاتفين بصوت واحد :

– الله أكبر .. الله أكبر ..

– وحار بنفسه ينظر إلى أخيه تارة وإلى الجمع أخرى ، ورأى في المقدمة مجموعة من الرجال شـــبكوا أيـــديهم بعضهم ببعض يتقدمون في صف واحد ووراءهم عدد من الشباب والكهول يحملون فوق رؤوسهم جثماناً يـــسيرون بالجموع باتجاه وسط المدينة ، فأدرك أن شهيداً جديداً وقع ضحية الغدر وأن ذاك هو سبب المظاهرة ، وظلّ حائراً لا يدري ما يفعل ، وإذا ببضع نسوة على الرصيف المؤدية للمنـــزل وتبيّن فيهن أمّه فأسرع راكضاً نحوها ، ولم يلحظ في تلهفه ما بها فقال وكلماته يلاحق بعضها بعضا :

– أمي .. أين كنت ؟ .. طارق وحده في المنـــزل ، سأذهب في المظاهرة ولن أتأخر إن شاء الله ..

ورأته يولي ظهره لها ويمضي هاتفاً قبل أن يصل الجمع : الله أكبر ، وهي تناديه بصوت خنقته العبرات :
– ياسر .. ابق هنا يا ياسر

وغاب ياسر وسط الجموع ، وشقّ طريقه نحو المقدمة حتى وصل إلى جثمان الشهيد المحمول على الأعناق ، ورأى بين الرجال كهلاً يعرفه فتقدم يقول في أذنه :
– عمّ عبد الجليل ..

والتفت الرجل فعرفه فقال :
– ياسر ماذا تفعل هنا ؟ ..

– عم عبد الجليل ، أين أبي ؟ أليس معكم ؟ ..
– دعنا الآن ، واذهب إلى أمّك فهي في حاجة إليك

– علام تتظاهرون يا عم عبد الجليل ، .. ماذا حدث ؟ .. هل تحتاجون إلى أسلحة ؟ ..
قال العم عبد الجليل محاولاً جهده أن يضفي على صوته نبرة الحزم والقوة ؟
– كلا ، لسنا في حاجة إلى سلاح ، اذهب إلى أمك يا ياسر ..

و لم يستطع ياسر إجابته ، فقد اندلع صوت طلقات النار من آخر الطريق وبرزت فجأة عدة سـيارات مـلأى بالجنود ، هبطوا منها يحملون المتاريس ويطلقون النار في كل اتجاه .. وظلّ الجمع الحاشد علـى هتافـه ومـسيرته ، واندفع الجنود نحوه في صفوف متراصّة متتالية ، حتى إذا توسطوا الطريق انهالت عليهم الأحجار من سطوح الأبنية ، وبرزت النساء في النوافذ يحملن كل ما وصل لأيديهن من الأواني المنـزلية وقطع الأثاث الـصغيرة يقذفنـها علـى اليهود .. وتساقط عدد منهم وماجت صفوفهم ، وثارت ثائرتهم ، وشرعوا يطلقون النار نحو النوافذ والسطوح ونحو الجمع الحاشد بلا انقطاع ..

وسقط عدد كبير من الصفوف الأولى ، واستمر الهدير بالتكبير لا ينقطع ، ورأى ياسر كيف أصابت طلقة العـم عبد الجليل في صدره فتهاوت يداه كما تهاوت أيدي من يحملون الجثمان الطاهر معه وانحنى ياسر على عبد الجليـل يتفحص إصابته ، وسقط إلى جانبه الجثمان فرأى وجهه .. فجمد بصره في مقلتيه وشعر بقلبه يتوقف عن الخفقان ، وانطلقت من أعماقه صرخة مدوية :

– أبي

وهوى عليه يقبّله ويبكي ، واختلطت دموعه بالدماء .. دماء من ثوى حوله من الشهداء ، ورفـع رأسـه نحـو

السماء بنظرة ضارعة فرأى عدداً من الطائرات يقترب من سطوح المنازل يطلق النار باتجاهها ، وشعر بأقدام الجنـــود فوق جسده يعبرون جثث الشهداء يلاحقون الجمع وقد بدأ يتفرق بين البيوت ، منهم من سقط على الطريق مضرجاً بدمه ، ومنهم من دخل باباً فتح أمامه وهو ما يزال يكبّر بأعلى صوته ، ومنهم من نالته أيدي الجنود فأمـــسكوا بـــه يسوقونه إلى جانب الطريق .. وشعر ياسر بألم شديد في ظهره ورأسه ، وأظلمت الدنيا حوله فغاب عن وعيه ..

ولم يدر كم لبث من الوقت عندما فتح عينيه وأجال بصره لا يستطيع أن يحرك رأسه ، فرأى وراء الغشاوة الـــتي تجلل عينيه رجالاً ونساءً يتحركون بين الشهداء والجرحى ، ووصلت إلى أذنيه تأوهات الألم .. ووقف متحاملاً على نفسه وشرع يتحسس جسده ويمسح بكمّه الدم عن رأسه ووجهه .. ورأى شبح أمّه يقترب منـــه وهـــي تتعثـــر في خطواتها ، ولمح أباه مسجّىً بجانبه ، فسارع نحوها يمسك بيديها ، فأقبلت عليه تضمّه وتتفحص جراحه ، وحولهمـــا أهل الحيّ قد انشغل كل منهم بجريح أو شهيد ، يحملون الشهداء إلى المسجد ويعودون بالجرحى إلى المنازل .. قـــد انعقدت ألسنتهم عن الكلام ، لا يقدرون حتى على الجهر بالدعاء المتردد في صدورهم أن ينكشف الغمّ عنهم ويأتيهم نصر من عند الله ..

❁ ❁ ❁

جلس ياسر وأمّه يتناولان بعض الطعام صامتين وعلى بساط الغرفة طارق يعبث بلعبه .. وقطع ياســـر الـــصمت فجأة بقوله :

– أمي .. لم لا تسافرين إلى خالتي أسماء ؟ ..
– وأين نحن من (المدينة) ؟

– إنهم لا يمنعون أحداً من الخروج ، بل يتمنّون لو يخرج الجميع لتخلو البلاد لهم
– وهل نترك البلاد لهم ؟
– أمي .. ليس باستطاعتك فعل شيء هنا وأنت وحدك ، ولو كان ..

وقطع عبارته نادماً على ما أوشك أن يقول ، فاكتفت أمّه بقولها :
– رحمه الله

وتابعا الطعام صامتين من جديد ، وعاد ياسر بعد قليل إلى الحديث ثانية :
– إذا سافرت إلى المدينة فستعودين إن شاء الله بعد هزيمة اليهود
– وهل أعيش لذلك الحين يا ولدي ؟
– ألست تقولين دائماً ألاّ نيأس من روح الله ؟

– لست يائسة يا ياسر ، ولكنهم قوم يبطشون ، والقوة بأيديهم اليوم ، والعالم كلّه يدعمهم ، وأرضنا محتلة.

– لن يستمر الوضع على هذا الحال إن شاء الله ، وربما تستطيعين أن تفعلي عند خالتي أسماء ما لا تقدرين عليـــه الآن

وأنصتت أمه هنيهة ثم قامت ترفع الأطباق وقد بدت علامات التفكير في وجهها ، فبادرها ياسر بـــالكلام وقـــد شعر أنها توشك تقتنع بما يقول :

– إنّ معك ما يكفي من المال للسفر ، وإذا أتى أبو عبيدة الآن نخبره أنك ستسافرين معه ومع زوجه

– ماذا تعني ؟ .. إن سافرت فلا بدّ أن تسافر معي

قال كأنه يحدّث نفسه :

– لن أغادر بلدتنا قبل أن أقتص لأبي من اليهود ..

واتخذّت أمّه مكانها أمامه من جديد وهي تقول وعلامات الاهتمام على وجهها :

– حدّثني يا ياسر ماذا تريد أن تفعل ضد اليهود ؟

– لست وحدي .. إنّ في صفي فقط عشرة إخوة استشهد آباؤهم أو أحد أقربائهم في الأيام الماضية

– وماذا تنوون عمله ؟

وشعر ياسر أنّه تحدّث بأكثر ممّا أراد فحاول المراوغة قائلا :

– لا شيء .. لا شيء الآن

– ياسر .. لا تخف عني الحقيقة ، قل لي على ماذا اتفقتم ؟

– لا شيء يا أمي .. إنّ المقاومة كبيرة في المدينة ، ولن يحدث ما تخشين منه إن شاء الله ، واليهود يتجنبون المزيد من الاصطدامات بالسكان ، ألم تلاحظي أنهم لم يدخلوا حيّنا منذ سبعة أيام ؟

وقطعت أمه عليه الحديث مصرّة على سؤالها :

– أريد أن أعرف ما تريد أنت ورفاقك القيام به ..

وتنفس ياسر الصعداء وهو يسمع قرعاً خفيفاً على الباب ، ونهض من مكانه يقول :

– هذا أبو عبيدة ولا شك ، ضعي حجابك

وغادرت الغرفة ، وفتح ياسر الباب فدخل رجل في الثلاثين من عمره ومعه عائشة زوجه فألقيا السلام على ياسر وسألاه عن أمه فإذا بها تدخل من الغرفة المجاورة محيّية ، ودعتهم إلى الجلوس قائلة :

– كنّا نريد أن نشرب الشاي ، أفلا نشربه معا ؟

وذهبت تعدّ الشاي ، فقال أبو عبيدة هامسا ؟

– هل قبلت بالسفر ؟

– نعم لكنّها تريد أن أسافر معها

– وما فعلت ؟

ونظر ياسر إلى أبي عبيدة و لم يتكلم ، فقال الأخير متابعا :

– تريد البقاء .. أليس كذلك ؟

قال ياسر :

– نعم ، ولا أدري كيف أقنعها بذلك

وتدخلت عائشة في الحديث بقولها :

– سأحاول الحديث معها ..

وهمّت بالقيام فقال زوجها لها :

– بل دعي ذلك الآن ، من الصعب إقناعها و لم يمض على استشهاد أبي ياسر سوى أيام قليلة

قال ياسر :

– وماذا نفعل ؟

– دع الأمر لي أتدبره .. إنها صابرة كما نعرفها ، ولن يكون بقاؤك للجهاد سبب تعاسة لها بل سـبب اعتـزاز بك ، وهي التي أنشأتك على حبّ الجهاد يا ياسر

وبدا على وجه ياسر الارتياح والاطمئنان ، وأدرك مدى ثقة أخيه به ، وشعر بقوة الإيمان تسمو به وكأنّه وحده يحمل همّ الإسلام والمسلمين جميعاً ، وازداد شوقاً للجهاد والقتال ، وشعر بنفسه أقوى من أهـل الكفـر والباطـل كلّهم .. وسمعه أبو عبيدة وهو يردد دون أن يشعر :

– اللهم أسألك النصر أو الشهادة .. اللهم أسألك النصر أو الشهادة

المشهد القادم : إلى أين ؟ ..

---

(*) كان المشهد الأوّل بعنوان (مع الأذان) وقد نشر في العدد ٤٥ من الرائد